



● مرقا بيروت أثناء القصف الإيطالي

العثمانيون وعالمهم المتوسطي:

باروميتر القوة والضعف

عقدت في الفترة ما بين ١٨ إلى ٢٠ نيسان عام ٢٠٠٢ ندوة «العثمانيون والعالم المتوسطي: مقاربات جديدة» بدعوة من شعبة التاريخ - وحدة التكوين والبحث: المغرب والعالم العربي - الإسلامي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس أكاد. ويمثل هذا المؤتمر أحد الاتجاهات الجديدة في التاريخ العثماني، التي تقوم على إعادة دراسته برؤية معاصرة، واستخلاص العبر منه واستشراف المستقبل. وساد المؤتمر أجواء مقارنة التاريخ العثماني بموضوعية وحيادية، والوعي بأهميته وعبره بعيداً عن التحامل والعصبية والأينية. ومما يميز المؤتمر كثرة المؤرخين الشبان، سواء من المغرب أو من خارجها، والمأمع معظمهم باللغة العثمانية، فضلاً عن اللغات الأوروبية، وعلمهم على الوثائق العثمانية.

شارك في المؤتمر ثلاثون باحثاً وباحثة يمثلون بلدان المغرب وليبيا وتونس ولبنان وتركيا وألمانيا. استمت الندوة بأجوائها العلمية، وتعترف العلماء المشاركون إلى بعضهم بعضاً، وتناقشوا معاً خلاصات أبحاثهم واستنتاجاتهم، معتبرين أن ما توصلوا إليه ليس نهاية المطاف في مسيرة السير عن التاريخ العثماني، وعلاقة الدولة العثمانية بعالمها المتوسطي وولاياتها العربية ورعاياها.

تكمن أهمية المؤتمر في القراءات الجديدة التي قدمها الباحثون لموضوعات عدة في التاريخ العثماني تحورت حول البحر المتوسط. فانتسجت المداخلات إلى محاور زمنية ثلاثة: القرن السادس عشر، الذي اعتبر في معظمه عصر قوة للدولة العثمانية؛ القرن السابع عشر، وهو ما يتفق عليه أنه عصر الأزمة، أي بداية إدراك الدولة العثمانية أن ثمة خللاً أخذ يتفشى في جسمها؛ والقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث شكّل القرن الأول بداية ما سمي بالمسألة الشرقية، فيما اعتبر القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عصر ذروة الإخترافات الأوروبية في شتى مجالات الحياة العثمانية، رافقته محاولات إصلاح قوية للنخب العثمانية.

ولناحية الموضوعات، انتسجت المداخلات إلى تسعة محاور بحثت في علاقة العثمانيين بجيرانهم في العالم المتوسطي، وصورة العثمانيين في الأدبيات التاريخية الإسلامية، وإشكاليات الهوية والحدادة والأزمات التي عشت بالدولة. كما تناولت مداخلات أخرى موضوعات كالاخترافات المالية الأجنبية في الاقتصاد العثماني، وعلاقة الدولة العثمانية بولاياتها العربية في المشرق والمغرب العربيين، وأخيراً دور العثمانيين في الصراعات الدولية. وتخللت هذه المداخلات قراءات جديدة للأدبيات

المعاصرة للحكم العثماني.

وفي شأن المحور الأول، افتتحت الجلسة الدكتور عبد الجليل التيمي (كلية الآداب، تونس) بمدخلة قيمة حول إشكاليات القرن السادس عشر الميلادي بالنسبة لعلاقة الدولة العثمانية بعالمها المتوسطي. فقارب المسألة من زوايا مختلفة، كاشفاً النقاب عن كثير من الموضوعات التي لا تزال تحتاج إلى مزيد من البحث والتحصيل. وختم بتوصيات قيمة تشكل انطلاقة موضوعية لتاريخ علمي عربي رصين ومستمر.

وفي المحور الثاني، اتفق الباحثون على قوة السلطنة العثمانية البحرية في المتوسط خلال القرن السادس عشر في تصديها للقوى البحرية المسيحية. فأظهر مصطفى الغاشي (كلية الآداب، تطوان) قدرة الدولة العثمانية على التحول من دولة برية إلى دولة بحرية تقارع الأساطيل الأجنبية في مياه البحر المتوسط وفق استراتيجية محددة. ومن جانبها، رصدت الباحثة فاطمة الزهراء نظام (كلية الآداب - المحمدية) الصراع البحري العثماني - الأوروبي في أبعاده السياسية والاقتصادية والدينية مركزة على التعاون الذي تم ما بين العثمانيين والسعديين في غرب البحر المتوسط من أجل جعل هذا البحر «بحيرة إسلامية». ورأت أن معركة ليبانتو لم تشكل مفصلاً لنهاية النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط والهيمنة عليه، مقدمة الدليل على ذلك بحركة البحرية العثمانية أمام سواحل تونس في السبعينات من القرن السادس عشر. على عكس ذلك، رأى حسن أميلي (كلية الآداب، المحمدية) أن معركة ليبانتو أنهت تآلق البحرية العثمانية، حيث أعقبها تراخ نتيجة إصابة البحرية العثمانية بضعف تقني ومادي، مما أفسح في المجال أمام ديولات شمال أفريقيا لتطوير أساطيلها الخاصة بواسطة الأسرى الأوربيين الذين سبق ووقعوا في أيديها.

وفي الجلسة الثالثة، قدم ثلاثة باحثين وباحثة واحدة صوراً شتى عن العثمانيين في الأدبيات الإسلامية. فألقى محمد الحيمر (باحث، المحمدية) الضوء على كتاب ابن أبياس بدائع الزهور، الذي أרך للمرحلة الانتقالية من الحكم المملوكي إلى الحكم العثماني في بلاد الشام ومصر، وأعطى وصفاً دقيقاً عن الدولة القديمة والدولة الجديدة، والمواقف الشعبية منهما، وكيف أن ابن أبياس قدم صورة مبالغاً فيها عن السلطان العثماني. وفي المغرب العربي، شكّل العثمانيون نموذجاً لذلك الآخر، كما جاء في مداخلة خالد شكراوي (كلية الآداب، سايس فاس). ولفت هذا الباحث إلى محاولة الأدبيات المغربية مقارنة الأنا بالأخر العثماني في النواحي القيميّة وغيرها، منطلقة من الأحداث

التي شهدتها العالم المتوسطي سياسياً واقتصادياً. وعلى ما يبدو، فإن الأوضاع في المتوسط الغربي، ودعم داي الجزائر القروسنة ضد إسبانيا، نشطت الاتصالات الدبلوماسية ما بين المغرب والدولة العثمانية من أجل إعادة الهدوء إلى تلك المنطقة. هذا ما جاء في مداخلة محمد بوكبوط (كلية الآداب، سايس فاس). وختمت مليكة الزاهدي (كلية الآداب، المحمدية) الحديث في هذا المحور بمدخلة حول صورة العثمانيين عند مؤلفين مغربيين منفصلين، ورأت أن أهم ما جاء فيهما هو اللقاء الضوء على خصوصية العلاقات العثمانية - المغربية في عصر السلطان محمد بن عبد الله فضلاً عن تقديم وصف دقيق لمقائهما، كل على انفراد، بالسلطان العثماني، ووصف الديوان العثماني ومدينة الأستانة.

الهوية والأزمة والحدادة، كانت جميعها موضوعات المحور الرابع. فتناول عبد الرحيم بنحادة (كلية الآداب، الرباط) كيفية تعاطي الكتائبين مصطفى علي وكتائب جليبي مع أزمة السلطنة العثمانية في القرن السابع عشر. وفقد الباحث أهمية الكتائبين لاعتمادهما على الأسلوب التقدي للأوضاع العامة في الدولة العثمانية، وتوجيههما النصح والإرشاد للحكام العثمانيين حول ضرورة ولوج طريق الإصلاح إذا ما أرادوا إعادة البلاد إلى عصرها الذهبي. وعلى عكس ما هو متداول، خصص عبد الرحمن المودن (كلية الآداب، الرباط) إلى اعتبار السلطنة جسراً للحدادة إلى العالم الإسلامي. وقدم الأدلة على ذلك من خلال الإصلاح العسكري الذي اقتبسها عنها المغرب في القرن الثامن عشر، فضلاً عن اقتباس نظمها الاقتصادية، وصولاً إلى إعادة صياغة المغرب رؤى جديدة لعلاقاتها الخارجية أسوة بما فعله العثمانيون.

أما بيتينا درلاين (جامعة برلين الحرة، ألمانيا)، فبحثت في مسألة الشرعية الدينية للسياسة في المغرب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، منطلقة من الفتاوى التي أصدرها علماء مغاربة عام ١٩١٤ لمصلحة خلافة مغربية. ورأت الباحثة أن هذه الشرعية الدينية كانت متجهة نحو الداخل = توطيد سلطة سلطان المغرب، وليس نحو الخارج، أي منافسة العثمانيين.

وفي المحور الخامس، تحدث عبد الكريم مكنون (كلية الآداب، أكادير) عن القانون المختلط في دول من مصر والدولة العثمانية. فقارن بين قانوني ١٨٢٧ و ١٨٧٣، نصحاً بروحاً وعلاقتها بالقوانين الغربية، وخصوصاً الفرنسية منها. ورأت أن فرنسا عمدت إلى قراءات مختلفة لنصوص القانونيين كي تتسجم مع تطور مصالحها الاقتصادية بكل من مصر والسلطنة.

عبد الرؤوف سنو(*)